ذكر الله تعالى

أ.د/ ابو زيد محمد ابو زيد جعفر
استاذ التفسير وعلوم القرآن

أ.د / أبو زيد محمد أبو زيد د
أستاذ التفسير وعلوم
القرآن الكريم

ذكر الله تعالى

قال الله تعالى : «فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون»[1].

وعن زيد أسلم أن موسى عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك؟ قال له ربه : ((تذكرنى ولاتنسانى، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى وإذا نسيتنى فقد كفرتنى)) وقال الحسن البصرى وغيره: ((إن الله يذكر من يذكره، ويزيد من شكره، ويعذب من كفره)) وقال بعض السلف فى قوله تعالى: ((اتقوا الله حق تقاته[2])) قال : هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينس، ويشكر فلا يكفر. وذكر ابن أبى حاتم: عن مكحول الأزدى قال : قلت لابن عمر: ((أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله، وقد قال الله تعالى " ((فاذكرونى أذكركم)) قال : إذا ذكر الله هنا، ذكره الله بلعنته حتى يسكت. فمن ذكر الله ذكره الله بمغفرته ورحمته عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل : ((أنا عند ظن عبدى. وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منه، وإن اقترب إلى شبراً تقربت إليه ذراعا، وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا. وإن أتانى يمشى، أتيته هروله[3])) والذكر: هو مايجرى على اللسان والقلب من تسبيح الله- تبارك وتعالى- وتنزيهه وحمده، والثناء عليه، ووصفه بصفات الكمال ونعوت الجلال والجمال. وقد أمر الله تعالى- بالإكثار من ذكره فقال سبحانه: ((ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيراً. وسبحوه بكرة وأصيلا [4])) لما للمؤمنين فى ذلك من الثواب الجزيل والأجر الكبير قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن

١- الآية ١٥٢ سورة البقرة.
٢- بعض الآية سورة آل عمران.
٣- صحيح مسلم كتاب الذكر ج ع ص ٢٠٦٨ح ٢٦٧٥/٢١ دار إحياء التراث العربى بيروت
٤- سورة الاحزاب (٤١-٤٢).

سعيد عن عبد الله بن سعيد حدثنى مولى ابن عباس عن أبى بحرية عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخيرلكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربون أعناقكم)) قالوا وما هو يارسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم ((ذكر الله عز وجل)) وأنه - سبحانه- اختصى أهل الذكر بالتفرد والسبق، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال : لانه رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى طريق مكة ، فمر على جبل يقال له جمدان فقال: (سيروا هذا جمدان سبق المفردون)) قالوا: وماللمفردون؟ يارسول الله قال :((الذاكرون الله كثيرا، والذكرات[١] وأنهم هم الأحياء على الحقيقة...عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال النبى صلى اله عليه وسلم: ((مثل الذى يذكر ربه والذى لايذكر ربه مثل الحى والميت[٢])) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال فيسألهم ربهم عز وجل - وهو أعلم منهم: ما يقول عبادى؟ قال تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال فيقول : هل رأونى ؟ قال فيقولون: لا والله مارأوك. قال فيقول : كيف لو رأونى: قال يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً. قال يقول: فما يسألونى ؟ قال: يسألونك الجنة . قال يقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون: لا والله يارب مارأوها. قال فيقول : فكيف لو أنهم رأوها؟ قال يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ قال يقولون: من النار. قال يقول: وهل رأوها؟ قال فيقولون: لا والله يارب مارأوها. قال يقول : فكيف لو رأوها؟ قال يقولون: لورأوها

١- صحيح مسلم كتاب الذكر ج ع ص ٢٠٦٢ ج٤/٢٦٧٦ دار احياء التراث العربى بيروت

كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة. قال فيقول فأشهدكم أنى قد غفرت لهم. قال يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم[١])).وذكر الله رأس الأعمال الصالحة مثل الباقيات الصالحات وهى :((سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)) وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة والاستغفار والدعاء بخيرى الدنيا والآخرة، والمواظبة على العمل بما أوجبه الله أو ندب إليه كتلاوة القرآن وقراءة الحديث ومدارسة العلم والتنقل بالصلاة ونحو ذلك فذكر الله أفضل من كل شيئ. عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:((من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإ كانت مثل زبد البحر[٢])) وعن أى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:((كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرح: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده [٣])) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيئ قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل - مما جاء إلا رجل عمل أكثر منه [٤])) وقال الفخر الرازى : المراد بذكر اللسان الألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد، والذكر بالقلب التفكير فى أدلة الذات والصفات وفي أدلة التكاليف من الأمر والنهى حتى يطلع على أحكامها، وفى أسرار مخلوقات الله. والذكر بالجوارح هو أن تصير مستغرقة فى الطاعات، ومن ثم سمى الله الصلاة ذكر فقال : ((فاسعوا إلى ذكر الله)) وروى عن بعض العارفين أنه قال : الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء ، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضاء. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « كل سلامى من

١- فتح البارى ج ١١ كتاب الدعوات باب فضل ذكر الله عز وجل ح٦٤٠٨ ٢١٢/.
٢- فتح البارى ج ١١ كتاب الدعوات باب فضل التسبيح ح ٦٤٠٥ /٢١٠ دار الريان للتراث.
٣- نفس المرجع ح ٦٤٠٦.
٤- فتح البارى ج ١١ كتاب الدعوات باب فضل التهليل ج ٦٤٠٣ / ٢٠٤ دار الريان للتراث.

الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الإثنين صدقة، ويعين الرجل- على دابته فيحمل عليها- أو يرفع عليها متاعه- صدقه ،والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، يميط الأذى عن الطريق صدقة[١])).

وعن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة. فكل تسبيحة. وكل تحميده صدقة. وكل تكبيرة صدقة. وأمر بالمعروف صدقة. ونهى عن المنكر صدقة. ويجزى من ذلك، ركعتان يركعها من الضحى [٢])).

قال تعالى : ((واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولاتكن من الغافلين [٣])) أى واذكر ربك الذى خلقك ورباك بنعمة فى نفسك ، ذكر دون الجهر برفع الصوت من القول وفوق التخافت والسر كما قال تعالى : ((ولا تجهر بصلاتك ولاتخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا[٤])) وهكذا يستحب أن يكون الذكر لايكون نداءً وجهراً بليغاً، عن أبى موسى قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ((أيها الناس اربعوا على أنفسكم، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبا. إنكم تدعون سميعاً قريباً. وهو معكم)) قال وأنا خلفه، وأنا أقول : لاحول ولاقوة إلا بالله. فقال :((ياعبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟)) فقلت: بلى يارسول الله قال : ((قل لاحول ولا قوة إلا بالله[٥])) ولهذا لما سألوا رسول الله صلى

١- فتح البارى ج ٦ كتاب الجهاد والسير باب من أخذ بالركاب ونحوه ح ٢٩٨٩/١٥٣ دار الريان للتراث.

٢- صحيح مسلم ج كتاب صلاة المسافرين ح ٨٤-(٧٢٠)/٤٩٨ دار إحياء التراث العربى بيروت.

٣- الآية ٢٠٥ سورة الأعراف.

٤- بعض الآية ١١٠ من سورة الإسراء.

٥- صحيح مسلم ج ٤ كتاب الذكر ج ٢٧٠٤/٢٠٧٦ دار إحياء التراث العربى- بيروت.

الله عليه وسلم فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل ((وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)) فمن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرا بأن يراقب الله ولاينساه فيما بينهما، ويكون هذا الذكر فى صلاتى الفجر والعصر التين تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ويشهدان عند الله بما وجدا عليه العبد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون[١])) وعن عبيد الله بن بسر أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أن شرائع الإسلام قد كثرت على. فأنبئنى منها بشئ أتشبث به قال « لأيزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل [٢] » والذكر سبيل النجاة.... فعن معاذ- رضى الله عنه- أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ماعمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله- عز وجل [٣] » وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « ماجلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم [٤] » فذكر الله فى الحقيقة استحضار عظمة. - الله - تعالى وجلاله وكما له استحضارا قلبيا يبعث على الخشية والمراقبة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به وهو يغرس غرسا فقال « يا أبا هريرة ما الذى تغرس؟ » قلت غراسالى . قال:« ألا أدلك على غراس خير لك من هذا؟ » قال: بلى يارسول الله

١- فتح البارى ج ١٣ كتاب التوحيد ح ٤٦٩/٤٧٨٦ دار الريان للتراث وصحيح مسلم ج١ كتاب المساجد باب فضل صلاتى الصبح والعصر والمحافظة عليهما ج٤٣٩/٦٣٢ دار إحياء التراث العربى- بيروت.

٢- سنن ابن ماجة ج٢ كتاب الأدب ج ١٢٤٦/٣٧٩٣ دار إحياء التراث العربى.

٣- رواه أحمد وسنن ابن ماجه ج٢ كتاب الأدب عن معاذ بن جبل ص ١٣٢٤٥.

٤- سنن الترمذى ج ٥ كتاب الدعوات ح ٤٣٠/٣٣٨ دار الكتب العلمية بيروت.

قال: « قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، يغرس لك بكل واحدة شجرة فى الجنة [١] ».

ولابد أن يكون الذكر مصحوباً بالفكر، كما قال تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار [٢] » وهذا ينير القلوب بذكر مايدل على التوحيد والجلال والكبرياء قال ابن عمر: قلت لعائشة: أخبرينى بأعجب مارأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب، أتانى فى ليلتى فدخل فى لحافى حتى ألصق جلده بجلدى، ثم قال لى : ياعائشة هل لك أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربى، فقلت يارسول الله إنى لأحب قربك وأحب مرادك قد أذنت لك، فقام إلى قربة من ماء فى البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلى، فقرأ من القرآن وجعل يبكى ، ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى، فقال له يارسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر، فقال يابلال أفلا أكون عبدا شكوراً، ثم قال مالى لا أبكى وقد أنزل الله فى هذه الليلة: «إن فى خلق السموات والأرض » ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها[٣] وروى ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل فيها.

وعن على رضى الله عنه وكرم الله وجهه: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ويقول : إن فى خلق السموات والأرض. وقال الشيخ أبو سليمان الدارانى: إن لأخرج من منزلى فما يقع بصرى على شيئ إلا

١- سنن ابن ماجه ج ٢ كتاب الأدب ح ١٢٥١/٣٨٠٧ دار إحياء التراث العربى.

٢- الآية ١٩٠-١٩١ سورة آل عمران.

٣-التفسير الكبير للفخر الرازى المجلد الخامس ص ١٣٦ دار إحياء التراث العربى

رأيت لله على فيه نعمة ولى فيه عبرة وعن الحسن البصرى أنه قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وقال الفضيل : قال الحسن : الفكرة مرآة تركت حسناتك وسيئاتك وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام يذكر الله عز وجل حسن، والفكرة فى نعم الله أفضل العبادة .وعن ابن عباس أنه قال : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه. وعن عيسى عليه السلام أنه قال: يابن آدم الضعيف اتق الله حيثما كنت، وكن فى الدنيا ضيفا، واتخذ المساجد بيتاً، وعلم عينيك البكاء، وجسدك البصر، وقلبك الفكر، ولاتهتم برزق غد[1].

وقد أمر الله - جل ذكره- بأن يذكر ذكرا كثيراً، ووصف أولى الألباب الذين ينتفعون بالنظر في آياته بأنهم: « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم[2] » عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيئ قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل[3] وقال مجاهد: لايكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا. قال عطاء: من صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل فى قوله تعالى : « والذكرين الله كثيراً والذكرات » وسئل الإمام أبو عمر بن الصلاح رحمة الله تعالى عن القدر الذى يصير به من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات فقال : إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساء فى الأوقات والأحوال المختلفة ليلاً ونهاراً، كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس- رضى الله عنهما- فى هذه الآيات قال : إن الله - تعالى- لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما، وعذر

١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ص ٤٣٨ مكتبة دار التراث ٢٢ شارع الجمهورية.

٢-بعض الأية ١٩١ سورة آل عمران.

٣-صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ كتاب الذكر حديث ٢٦٩٣ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

أهلها فى حال العذر غير الذكر، فأن الله لم يجعل له جدا ينتهى إليه، ولم يعذر أحد فى تركه إلا مغلوبا على تركة فقال:« فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم»[١] بالليل والنهار، فى البر والبحر، وفى السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. بحيث يعلم أن الله - جل شأنه- ناظر إليه، ومطلع عليه.... قال تعالى: « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد [٢] وفى هذا يقول أحد الذاكرين:

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة ❊ وأيسر مافى الذكر ذكر لسانى

وكدت بلا وجد أموت من الهوى ❊ وهان على القلب بالخفقان

فلما أرانى الوجد أنك حاضرى ❊ شهدتك موجودا بكل مكان

فخاطب موجودا بغير تكلم ❊ ولا حظت معلوما بكل عيان

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس[٣].

١- بعض الآية ١٠٣ سورة النساء.

٢-بعض الآية ١٦ سورة ق.

٣- صحيح مسلم ج ٤ ٢٠٧٢ كتاب الذكر حديث ٢٦٩٥ دار إحياء التراث العربى بيروت.

فضل الاكثار من ذكر الله

وأمر - الحق - سبحانه- بذكره كثيراً الشد حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، فأى لحظة خلا فيها العبد ذكر الله كانت حسرة يوم القيامة. وفى البيهقى عن عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال : ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة» وعن معاذ يرفعه « ليس يتحسر أهله الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها » وعن ابن مسعود رضى الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسرى بى فقال: يامحمد أقرئ أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر [١] وعنه أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن العبد إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر قبض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه وصعد بهن فلا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجئ بهن وجه الرحمن جل وعلا، وذلك قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه [٢] [٣] وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن مايذكرون من جلال الله التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ينعطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل تذكر بصاحبها أما يحب أحدكم أن يكون له من يذكربه [٤] فالذكراين الله كثيرا لهم

١- رواه الترمذى وقال : حديث حسن.

٢- بعض الآية ١٠ من سورة فاطر.

٣- رواه الحاكم وقال : صحيح الأسناد.

٤- رواه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

المغـفـرة والأجـر العظيم روى أبو هريرة - رضى الله عنه - عن البنى صلى الله عليـه وسلم : إن الله - عـز وجل يقـول : أنا مع عبـدى ، إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتـاه والمعيـة هنا : دليـل التكريم الإلهى ، والرفعة الربانية للعبد الذاكر ، وكفى بمعيـة الله شرفاً وقدراً وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله علي كل أحيـانه » وقال الحسن : أحب عباد الله إلى الله أكثرهم له ذكرا وأتقاهم قلباً : أن النبى صلى الله عليه وسلم يبدأ بالليل مرحلة جديدة من مراحل الإقبال على الله فعن حذيفة وأبى ذر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قال : « باسمك اللهم أحيا وأموت » وعن أبى هريرة رضى الله عنه قـال : قـال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : « إذا أوى أحـدكم إلى فـراشـه فليـقـل : باسـمك ربى وضـعت جنبى ، وبك أرفـعـه ، وإن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ».

وهذا الحديث الشريف شرح لقوله تعالى : « الله يتوفى فى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامـهـا ، فـيـمسك التى قضى عليـهـا الموت ويرسل الأخر إلى أجل مسمى [1] والمؤمن حين تتدبر ذلك يشعر أن روحه فى يد الله، وأنه يستمد محياه لحظة بعد أخرى هبة من رب العالمين. قد يضع جنبه فلا ينهض إلا يوم النشور ، فإن كان ذلك فهو يرجوا الرحمة. وإن قام ليبدأ نهاراً آخر فهو يرجو أن يحيا فى ضمان الله وحفظه. عن البراء بن عـازب رضى الله عنه قـال : قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسى إليك، وفوضت أمرى إليك ، وألجات ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأة منحا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت.... فإن مت على الفطرة » والواقع أن الدعـوات التى علمنا إياها الرسـول الكريم صلى الله عليـه

١- الأية ٤٢ سورة الزمر.

وسلم تريح الأعصاب وتطمئن القلوب وجاء فى رواية أخرى أن النبى عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه : « اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيئ فالق الحب والنوى، منزل التوراه والإنجيل والقرآن... أعوذ بك من شر كل ذى شر... أنت آخذ بناصيته. أنت الأول فليس قبلك شيئ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ، وانت الظاهر فليس فوقك شئ، وأنت الباطن فليس دونك شئ. اقض عنا الدين، واغننا من الفقر » ولاتحسبن أنه - عليه الصلاة والسلام - يأخذه النعاس العميق بعد هذه الضراعات التى ناجى بها ربه، لا .. ماهى إلا ساعة ثم يستيقظ ليلى أمر الله بأستئناف التسبيح والتحميد، فى جنح الليل كما كان يصنع آناء النهار قال تعالى : « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن اليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا [(١)] ».

وقد ينام بعد ذلك ولكن القلب المنعم بالتقوى يقظان ، فاذا تقلب فى فراسه، أوتهيأ لقيام ليلة قال : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق ، والجنة حق والنار حق، والنبيون حق ، ومحمد والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاضمت وإليك حاكمت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت ». وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرغب أمته فى استقبال الليل بكيان نقى نظيف فيقول صلى الله عليه وسلم : « طهروا هذه الأجساد طهركم الله تعالى فإنه لايبيت أحد طاهرا إلا بات فى شعاره ملك يقول : « اللهم اغفر له فإنه بات طاهرا ». ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ولفاطمة رضى الله عنها : « إذا أويتما إلى

١- سورة الإنسان الآية ٢٥و٢٦.

فراشكما، أو إذا أخذتما مضاجعكم فكبرا ثلاثا وثلاثين، وسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمد ثلاثا وثلاثين». وفى رواية التسبيح: « أربعا وثلاثين » قال على فما تركته منذ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل له : ولا ليلة صفين ؟ قال : ولا ليلة صفين وكان على كرم الله وجهه كثير الهموم ،لكن لم تبعده عن ذكر الله قبل كل منام بل كان يهزمها بهذا الذكر الموصل عن أبى أمامة رضى الله عنه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من أوى إلى فراشه طاهراً، وذكر الله عز وجل حتى يدركه النعاس، لم يتقلب ساعة من الليل يسأل الله عز وجل فيها خيراً من خير الدنيا والآخره إلا أعطاه إياه»

فمن أراد أن ينتصر على شيطانه عليه بذكر الله عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يعقد الشيطان على قافيه رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقده مكانها : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ وذكر الله، إنحلت عقدة، وإن توضأ انحلت عقدة ، وإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان [١] » بهذا يصح البدن وينشرح الصدر. وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أنس رضى الله تعالى عنها حينما قالت له : يارسول الله ... أوصنى... فقال لها : « اهجرى المعاصى. فإنها أفضل الهجرة، وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين بشئ أحب إليه من كثرة ذكره» وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليبعثن الله أقواما يوم القيامة فى وجوههم النور على منابر اللؤلؤ، تغبطهم الناس، ليسوا بأنبياء ولا شهداء » قال : فجثا أعرابى على ركبتيه فقال : يارسول الله صفهم لنا نعرفهم .. قال : « هم المتحابون فى سبيل الله

١- الموطأ. ح ١ ص ٧٦ دار إحياء التراث.

٢- رواه الطبرانى بإسناد حسن.

من قبائل شتى يجتمعون على ذكر الله يذكرون (٢) وينبغى أن يكون الموضع الذى يذكر فيه خاليا من كل مايشغل البال، ويحصل من وجوده الاشتغال والواسواس ، ونظيفاً طاهراً- فإنه أعظم فى احترام الذكر والمذكور. وينبغى أن يكون فم الذاكر نظيفاً فإن كان رائحة كريهة أزال ذلك بالسواك... فإن كان فيه نجاسة أزالها بالغسل بالماء فلوذكر ولم يغسلها فهو مكروه ولا يحرم.

روى عن معاذ بن جبل- رضى الله عنه - أنه قال : (إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قلت : « أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال: أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله » وهذا رجل رآه سيد المرسلين صلى الله عليه ليلة المعراج وقد نال من الرفعة المكانة القصوى.

يقول صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أسرى بى برجل مغيب فى نور العرش، قلت : من هذا ؟ أهذا ملك قيل : لا ، قلت نبى ؟ قيل لا قلت من هو ؟ قال : هذا رجل كان فى الدنيا لسانه رطب من ذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولم يستسب لوالديه » أى لم يجلب لهما السب والشتم قيل لمحمد بن النضر أما تستوحسن وحدك قال: كيف أستوحش وهو يقول : أنا جليس من ذكرنى . فبالذكر يتطهر القلب ويستيقظ الضمير، ويزداد إيمان العبد حتى يطمئن بذلك قلبه ويسكن فؤداه قال تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (١) وقد بلغ من مكانه الذكر عند الله تبارك وتعالى أنه قرنه بأصول الدين، فجمع بينه وبين الواحدانية والصلاة والصوم والصدقة. حدثنا محمد بن إسماعيل ... أن الحارث الأشعرى حدثه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أمر يحى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بنى إسرائل أن يعلموا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى : أن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم،

١- الآية ٢٨ من سورة الرعد.

وإما أنا آمرهم ،فقال يحى : أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب، فجمع الناس فى بيت المقدس ، فامتلأ المسجد وتعدوا علي الشرف ، فقال إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن : أو لهن أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبد من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه دارى وهذا عملى فأعمل وأد إلى ، فكان يعمل ويؤدى إلى غيره سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده- فى صلاته مالم يلتفت. وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه وقد موه ليضربوا عنقه، فقال أنا فديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم ، وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لايحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، قال النبى صلى الله عليه وسلم: وأنا آمركم بخمس آ لله أمرنى بهن : السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فأنه من فاروق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا [1] جهنم، فقال رجل : يارسول الله وإن صلى وصام؟ قال : وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين. عباد الله [2] فالذى يذكر الله يقى نفسه ويحميها من كيد الشيطان : إنسيا أو جنيا وقال سبحانه

١- جثا جهنم. يقال بالحاء المهملة من حثا : إذا اغرف وضم، ويقال بالجيم من جثا : جمع جثوه وهى الجماعة المحكوم عليهم بالنار.

٢- سنن الترمذى جـ٥ كتاب الأمثال باب ٣ ماجاء فى مثل الصلاة والصيام والصدقة حديث ٢٨٦٣ ص ١٣٦ دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

٣- بعض الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.

عن المؤمنين : « ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم [٣] » وليس هناك شك فى أن العبد الذى يستحضر عظمة الله فى قلبه، ويراقب هيمنه سلطانه الأعلى على نفسه - لاشك أنه عبد محفوظ بالعناية قال تعالى : « وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه سميع عليم.إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون [١] والذكر أحد أربعة أشياء يقوم عليها خير الدنيا والآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من أعطيهن فقد أعطى خيرى الدنيا والآخرة قلبا شاكرا، ولسانا ذاكر، وبدنا على البلاء صابرا، وزوجة لاتبغيه حوباً [٢] فى نفسها وماله [٣] وروى عن معاذ - رضى الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله فقال : « أى المجاهدين أعظم أجرا؟ قال: أكثرهم لله- تبارك وتعالى - ذكرا، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أكثرهم لله- تبارك وتعالى - ذكرا ، فقال أبو بكر لعمر: يأبا حفص، ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجل [٤] » فمعيار التفضيل هو كثرة الذكر مقترنا بالعبادة ، فكلما كثر ذكر العبد مع أداء الفريضة ازداد فضلا واغتنم خيراً، عن أبى سعيد الخدرى، قال: خرج علينا معاوية على حلقة فى المسجد. فقال : ماأجلسكم ؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال : آلله- ماأجلسكم إلاذاك؟ قالوا: والله ماأجلسنا إلا ذاك . قال: أما إنى لم أستخلفكم تهمة لكم. وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل عنه حديثا منى. وإن رسول الله صلى عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه. فقال : « ماأجللسكم؟» قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده

١- الآية ٢٠٠ . ٢٠١ سورة الأعراف.

٢- حوبا : أى إثما.

٣- رواه الطبرانى.

٤- رواه أحمد والطبرانى

على ماهدانا للإسلام، ومن به علينا. قال « آلله- ماأجلسكم إلاذاك؟» قالوا: والله ماأجلسنا إلاذاك . قال « أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم. ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى، أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة[١] لقد بلغ من مكانة الذكر فى قلوبهم أنهم كانوا يجعلونه بمثابة الإيمان، وينزلونه منزلة الإيمان. قال صلى الله عليه وسلم: « لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده[٢]

وقال أبو الدرداء: لكل شيئ جلاء وجلاء القلوب ذكر الله » وفى البهيقى مرفوعا: « لكل شيئ صقالة وإن صقالة القلب ذكر الله» ولاتريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس وغيره، وجلاؤه ذكر الله فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرأة البيضاء، وإذا ترك الذكر صدئ، وصدأ القلب من أمرين: الغفلة والذنب، وجلاؤه بأمرين: الذكر والاستغفار فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكما على قلبه، فيرى الباطل فى صورة الحق، والحق فى صورة الباطل فإن تراكم عليه الصدأ أظلم واسود، وركبه الران الذى قال الله تعالى فيه: « كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون[٣] ».

وحينئذ يفسد تصوره فلا يقبل حقا ولاينكر باطلا، وذلك أعظم عقوبات القلب فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور. وأصل ذلك كله من الغفلة عن ذكر الله واتباع الهوى فى سخط الله ، فانهما يطمسان نور البصيرة، قال الله تعالى: « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا[٤] فالأعمال كلها إنما شرعت لإقامة ذكر الله قال الله تعالى: « وأقم الصلاة لذكرى[٥] »

١- صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٥ كتاب الذكر باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر دار إحياء التراث العربى بيروت.

٢- نفس المرجع السابقة.

٣- الآية ١٤ سورة المطففين.

٤- بعض الآية ٢٨ من سورة الكهف.

٥- بعض الآية من سورة طه.

٦- بعض الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

أى لأجل ذكرى وقال تعالى: « ولذكر الله أكبر[٦] » أى أكبر من عمل. فحضور القلب مع الله على الدوام هو المقدم على سائر العبادات، بل به شرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية وللذكر أول وآخر، فأوله يوجب الأنس بالله وأخره يوجب الحب لله، والمطلوب ألا يذكر إلا مع الأنس بالله ، والذكر يكون فى البداية متكلفاً لصرف قلبه عن الوسواس ولسانه عن اللغو - إلى ذكر الله ثم يأنس بذكر الله تعالى، وينغرس فى قلبه حب المذكور ، ثم يصير مضطر إلى كثرة ذكر الله تعالى، فإن من أحب شيئاً ولع بذكره ولم يصبر عنه « بعض مايقال دبر كل صلاة».

عن معاذ بن جبل- رضى الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده، ثم قال : « يامعاذ، والله إنى لأحبك» فقال له معاذ : يأبى أنت وأمى يارسول الله، وأنا والله أحبك. قال : « أؤصيك يامعاذ لاتدعن فى دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك[١] » وعن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال : قال رسو الله صلى الله عليه وسلم : « من سبح لله فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، فتلك تسع وتسعون، ثم قال تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيئ قدير، غفرت خطاياه، وإن كانت مثل - زبد البحر[٢] » وعن وراد مولى المغيرة بن شعبة، قال : كتب المغيرة إلى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر كلا صلاة إذا سلم : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت، ولا

١- أخرجه أبو داود والنائى واللفظ له وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما.

٢- مسلم (٥٩٥)، وأبو داود (١٥٠٤) ، والنائى (٩٩٧٠)و (٩٩٧١) فى الكبرى.

٣- البخارى (٨٤٤)، ومسلم(٥٩٣)، وابو داود (١٥٠٥) والنائى (٣/ ٧٠) فى المجتبى و(١٢٩) فى عمل اليوم والية.

ينفع ذا الجد منك الجد[٣] » وعن سعد بن أبى وقاص- رضى الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات : « اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر[١] واعلم أن ماورد فى فضل الذكر من الآيات والأخبار والآثار لا يحصى فأكتفى بهذا القدر راجيا العلى القدير أن يجعل ذلك فى ميزان حسناتنا وأن يبارك بفضله فى أولادنا ويجعلهم من حفظة القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يرحم الآباء والأمهات وأن يتوفنا مسلمين إنه على مايشاء قدير.

١- البخارى (٦٣٧٤) والترمذى (٣٥٦٢)، والنسائى (٨/٢٦٦) فى المجتبى.